نفحات من عبق السيرة النبوية

الدرس الثامن عشر

⌧عناصر المحاضرة:

❶ غزوة بني سُلَيم بالكُدْر.

❷ مؤامرة لاغتيال النبي ﷺ.

❸ غـزوة بني قينقـاع.

❹ غزوة السَّوِيق.

❺ قتل كعب بن الأشرف.

❻ سرية القردة.

❼ غزوة أحد.

⌧ساء المشركون ومن معهم ما أكرم الله به على المسلمين من النصر والفتح في غزوة بدر، فأخذوا يدبرون مكائد يضرون بها المسلمين، وينتقمون منهم، ولكن الله رد كيدهم في نحورهم وأيد المؤمنين بفضله.

غزوة بني سُلَيم بالكُدْر:

أول ما نقلت استخبارات المدينة إلى النبي ﷺ بعد بدر أن بني سليم وبني غَطَفَان تحشد قواتها لغزو المدينة، فباغتهم النبي ﷺ في مائتي راكب في عقر دراهم، وبلغ إلى منازلهم في موضع يقال له: الكُدْر، ففر بنو سليم، وتركوا في الوادي خمسمائة بعير استولى عليها جيش المدينة، وقسمها رسول الله ﷺ بعد إخراج الخمس فأصاب كل رجل بعيرين، وأصاب غلاما يقال له: (يسار) فأعتقه.

وكانت هذه الغزوة في شوال سنة 2 هـ بعد أسبوع من رجوع المسلمين من غزوة بدر، أو في المحرم سنة 3 هـ.

مؤامرة لاغتيال النبي ﷺ:

⌧كان من أثر هزيمة المشركين في وقعة بدر أن استشاطوا غضباً، وجعلت مكة تغلي كالمِرْجَل ضد النبي ﷺ، حتى تآمر بطلان من أبطالها أن يقضوا على مبدأ هذا الخلاف والشقاق ومثار هذا الذل والهوان في زعمهم، وهو النبي ﷺ.

⌧جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية في الحِجْر بعد وقعة بدر بيسير ـ وكان عمير من شياطين قريش ممن كان يؤذي النبي ﷺ وأصحابه وهم بمكة ـ وكان ابنه وهب بن عمير في أساري بدر، فذكر أصحاب القَلِيب ومصابهم، فقال صفوان: والله ما في العيش بعدهم خير، قال له

عمير: صدقت والله، أما والله لولا دَيْن علي ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضَّيْعةَ بعدي لركبتُ إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قِبَلَهُمْ عِلَّةً، ابني أسير في أيديهم، فاغتنمها صفوان وقال: على دينك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي، أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم، فقال له عمير: فاكتم عني شأني وشأنك، قال: أفعل، ثم أمر عمير بسيفه فشُحِذَ له وسُمَّ، ثم انطلق حتى قدم به المدينة، فبينما هو على باب المسجد ينيخ راحلته رآه عمر بن الخطاب ـ وهو في نفر من المسلمين يتحدثون ما أكرمهم الله به يوم بدر ـ فقال عمر: هذا الكلب عدو الله عمير ما جاء إلا لشر، ثم دخل على النبي ﷺ ، فقال: يا نبي الله، هذا عدو الله عمير قد جاء متوشحاً سيفه، قال: (فأدخله علي)، فأقبل إلى عمير فلَبَّبَهُ بحَمَالة سيفه، وقال لرجال من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ ، فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به، فلما رآه رسول الله ﷺ وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه ـ قال: (أرسله يا عمر، ادن يا عمير)، فدنا وقال: أنْعِمُوا صباحاً، فقال النبي ﷺ : (قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة)،ثم قال: (ما جاء بك يا عمير ؟) قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم، فأحسنوا فيه، قال: (فما بال السيف في عنقك؟) قال:قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئاً ؟ قال: (اصدقني، ما الذي جئت له ؟) قال: ما جئت إلا لذلك، قال: (بل قعدتَ أنت وصفوان بن أمية في الحِجْر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين علي وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني، والله حائل بينك وبين ذلك)،قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم تشهد شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ : (فقهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره)،وأما صفوان فكان يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر، وكان يسأل الركبان عن عمير، حتى أخبره راكب عن إسلامه فحلف صفوان ألا يكلمه أبدًا، ولا ينفعه بنفع أبدا،ورجع عمير إلى مكة وأقام بها يدعو إلى الإسلام، فأسلم على يديه ناس كثير.

🗐غزوة بني قينقاع:

⌧روي أبو داود وغيره، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر، وقدم المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع، فقال: (يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً)، قالوا:يا محمد، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا، فأنزل الله تعالى: {قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ} [آل عمران 12، 13].

⌧كان في معنى ما أجاب به بنو قينقاع هو الإعلان السافر عن الحرب، ولكن كظم النبي ﷺ غيظه، وصبر المسلمون، وأخذوا ينتظرون ما تتمخض عنه الليالي والأيام.

⇦وازداد اليهود ـ من بني قينقاع ـ جراءة، فقلما لبثوا أن أثاروا في المدينة قلقاً واضطراباً، وسعوا إلى حتفهم بظلفهم، وسدوا على أنفسهم أبواب الحياة.

⌧روى ابن هشام عن أبي عون: أن امرأة من العرب قدمت بجَلَبٍ لها، فباعته في سوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فَعَمَد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ـ وهي غافلة ـ فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين

على الصائغ فقتله ـ وكان يهودياً ـ فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع، فحاصرهم رسول الله ﷺ ، وكان ذلك يوم السبت للنصف من شوال سنة 2 هـ، ودام الحصار خمس عشرة ليلة إلى هلال ذي القعدة، وقذف الله في قلوبهم الرعب ، فأجلاهم إلى أذْرُعَات الشام، حيث مات أكثرهم بعد قليل.

غزوة السَّوِيق:

نذر أبو سفيان بعد غزوة بدر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو النبي ﷺ فخرج في مائتي راكب ليبِرَّ يمينه، وأغار بالعُرَيض في ناحية المدينة، فقطعوا أسوَارًا من النخيل، وأحرقوها، ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لهما فقتلوهما، وفروا راجعين إلى مكة.

وأتى الخبر رسول الله ﷺ فطاردهم، ولكنهم أفلتوا وطرحوا أثناء فرارهم كثيراً من السويق والأزواد ليتخففوا، فتمكنوا من الإفلات، وبلغ رسول الله ﷺ إلى قَرْقَرَةِ الكُدْر، ثم انصرف راجعاً وحمل المسلمون ما طرحه الكفار من سويقهم، فسميت بغزوة السويق وغزوة قَرْقَرَةِ الكُدْر.

قتل كعب بن الأشرف:

كان كعب من أثرياء اليهود وشعرائهم ومن أشد أعداء المسلمين فكان يهجو رسول الله ﷺ وأصحابه، ويشبب بنسائهم، ويمدح أعداءهم ويحرضهم عليهم، ونزل بعد بدر على قريش، فأغراهم على حرب المسلمين، وجعل ينشد الأشعار يبكي فيها على أصحاب القَلِيب من قتلى المشركين، يثير بذلك حفائظهم، ويذكي حقدهم على النبي ﷺ ، ويدعوهم إلى حربه، وعندما كان بمكة سأله أبو سفيان والمشركون: أديننا أحب إليك أم دين محمد وأصحابه؟ وأي الفريقين أهدى سبيلاً؟ فقال: أنتم أهدى منهم سبيلا، وأفضل، وفي ذلك أنزل الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً} [النساء: 51].

ولم يعتبر بما حل ببني قينقاع، فقال رسول الله ﷺ من لكعب بن الأشراف؟ فانتدب له محمد بن مسلمة وعباد بن بشر وأبو نائلة والحارث بن أوس وأبو عبس بن جبر، وأميرهم محمد بن مسلمة، وقد استأذن النبي ﷺ أن يقول شيئاً.

ثم أتى كعباً وقال: إن هذا الرجل ـ إشارة إلى النبي ﷺ قد سألنا صدقة، وإنه قد عنانا، أي أوقعنا في المشقة والعناء، فاستبشر كعب وقال: والله لتملنه، فاستقرضه محمد بن مسلمة طعاماً أو تمراً، واتفق معه على أنه يرهنه السلاح، وجاءه أبو نائلة فتحاور معه بمثل حوار محمد بن مسلمة، وقال: إن معي أصحاباً على مثل رأيي أريد أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن إليهم فقبل ذلك منه.

وفي الليلة الرابعة عشرة من شهر ربيع الأول سنة ٣ هـ جاءه المذكورون ومعهم السلاح، فنادوه فقام لينزل، وكان في حصنه، وكان حديث عهد بعرس، فقالت له زوجته: أين تخرج هذه الساعة؟ أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم، فلم يبال بقولها، ولما نزل ورأى السلاح لم يستنكر، لما سبق بينهم وبينه من العهد.

وأخذوا يمشون ليتنزهوا، ومدح أبو نائلة رائحة عطره، واستأذنه ليشم رأسه، فأذن له في زهو وخيلاء، فشمه وأدخل فيه يده وأشم أصحابه، ثم استأذنه ثانياً وفعل مثل ما فعل، ثم ثالثاً أيضاً، فلما استمكن من رأسه في المرة الثالثة قال: دونكم عدو الله فاختلفت عليه الأسياف دون جدوى، فوضع ابن مسلمة معولاً في ثنته، وتحامل عليه حتى بلغ العانة، فصاح صيحة أفزعت من حوله، وسقط قتيلاً، وأوقدت النيران على الحصون، لكن رجع المسلمون بسلام، وقد خمدت نار الفتنة التي طالما أقلقت المسلمين، وكمنت أفاعي اليهود في أجحارهم لفترة من الزمان.

🗐سرية زيد بن حارثة:

وفي جمادى الآخرة سنة ٣ هـ أرسلت قريش عيراً لهم إلى الشام عن طريق العراق، لتخترق نجداً إلى الشام، ولا تمر بقرب المدينة، وكان يقودها صفوان بن أمية، وعلم بذلك رسول الله ﷺ فأرسل زيد بن حارثة في مائة راكب، فدهمها زيد وهي تنزل على ماء في نجد يسمى بقردة، فاستولى على العير بكل ما فيها، وفر رجال العير بأجمعهم، وأسر الدليل فرات بن حيان فأسلم - وقدرت الغنيمة بمائة ألف، وكانت أوجع ضربة تلقتها قريش بعد غزوة بدر.

🗐غزوة أحد:

استعداد قريش لمعركة ناقمة

⌧كانت مكة تحترق غيظاً على المسلمين مما أصابها في معركة بدر من مأساة الهزيمة وقتل الصناديد والأشراف، وكانت تجيش فيها نزعات الانتقام وأخذ الثأر، حتى إن قريشاً كانوا قد منعوا البكاء على قتلاهم في بدر، ومنعوا من الاستعجال في فداء الأساري حتى لا يتفطن المسلمون مدى مأساتهم وحزنهم.

⌧وعلى أثر غزوة بدر اتفقت قريش على أن تقوم بحرب شاملة ضد المسلمين تشفي غيظها وتروي غلة حقدها، وأخذت في الاستعداد للخوض في مثل هذه المعركة.

⌧وكان عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وأبو سفيان بن حرب، وعبد الله بن أبي ربيعة أكثر زعماء قريش نشاطاً وتحمساً لخوض المعركة.

⌧وأول ما فعلوه بهذا الصدد أنهم احتجزوا العير التي كان قد نجا بها أبو سفيان، والتي كانت سبباً لمعركة بدر، وقالوا للذين كانت فيها أموالهم: يا معشر قريش، إن محمداً قد وَتَرَكُم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه ؛ لعلنا أن ندرك منه ثأراً، فأجابوا لذلك، فباعوها، وكانت ألف بعير، والمال خمسين ألف دينار، وفي ذلك أنزل الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ} [الأنفال: 36]

⌧ثم فتحوا باب التطوع لكل من أحب المساهمة في غزو المسلمين من الأحابيش وكنانة وأهل تهامة، وأخذوا لذلك أنواعا من طرق التحريض، حتى إن صفوان بن أمية أغرى أبا عزة الشاعر - الذي كان قد أسر في بدر، فَمَنَّ عليه رسول الله ﷺ وأطلق سراحه بغير فدية، وأخذ منه العهد بألا يقوم ضده - أغراه على أن يقوم بتحريض القبائل ضد المسلمين، وعاهده أنه إن رجع عن الغزوة حياً يغنيه، وإلا يكفل بناته، فقام أبو عزة بتحريض القبائل بأشعاره التي كانت تذكي حفائظهم، كما اختاروا شاعراً آخر - مُسَافع بن عبد مناف الجمحي - لنفس المهمة.

⌧وكان أبو سفيان أشد تأليباً على المسلمين بعدما رجع من غزوة السَّوِيق خائباً لم ينل ما في نفسه، بل أضاع مقدارًا كبيراً من تمويناته في هذه الغزوة.

⌧وزاد الطينة بلة - أو زاد النار إذكاء، إن صح هذا التعبير - ما أصاب قريشاً أخيراً في سرية زيد بن حارثة من الخسارة الفادحة التي قصمت فقار اقتصادها، وزودها من الحزن والهم ما لا يقادر قدره، وحينئذ زادت سرعة قريش في استعدادها للخوض في معركة تفصل بينهم وبين المسلمين.

🗐قوام جيش قريش وقيادته:

⌧ولما استدارت السنة كانت مكة قد استكملت عدتها، واجتمع إليها من المشركين ثلاثة آلاف مقاتل من قريش والحلفاء والأحابيش، ورأي قادة قريش أن يستصحبوا معهم النساء حتى يكون ذلك أبلغ في استماتة الرجال دون أن تصاب حرماتهم وأعراضهم، وكان عدد هذه النسوة خمس عشرة امرأة.

⌧وكان سلاح النقليات في هذا الجيش ثلاثة آلاف بعير، ومن سلاح الفرسان مائتا فرس، جنبوها طول الطريق، وكان من سلاح الوقاية سبعمائة درع.

⌧وكانت القيادة العامة إلى أبي سفيان بن حرب، وقيادة الفرسان إلى خالد بن الوليد يعاونه عكرمة بن أبي جهل، أما اللواء فكان إلى بني عبد الدار.

جيش مكة يتحرك:

تحرك الجيش المكي بعد هذا الإعداد التام نحو المدينة، وكانت الثارات القديمة والغيظ الكامن يشعل البغضاء في القلوب، ويشف عما سوف يقع من قتال مرير.

الاستخبارات النبوية تكشف حركة العدو:

⌧وكان العباس بن عبد المطلب يرقب حركات قريش واستعداداتها العسكرية، فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رسالة مستعجلة إلى النبي ﷺ ضمنها جميع تفاصيل الجيش.

⌧وأسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة، وجد في السير حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة ـ التي تبلغ مسافتها إلى نحو خمسمائة كيلو متر ـ في ثلاثة أيام، وسلم الرسالة إلى النبي ﷺ وهو في مسجد قباء.

⌧قرأ الرسالة على النبي ﷺ أبي بن كعب، فأمره بالكتمان، وعاد مسرعاً إلى المدينة، وتبادل الرأي مع قادة المهاجرين والأنصار.

استعداد المسلمين للطوارئ:

⌧وظلت المدينة في حالة استنفار عام لا يفارق رجالها السلاح حتى وهم في الصلاة، استعداداً للطوارئ.

⌧وقامت مفرزة من الأنصار ـ فيهم سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وسعد بن عبادة ـ بحراسة رسول الله ﷺ، فكانوا يبيتون على بابه وعليهم السلاح.

⇦وقامت على مداخل المدينة وأنقابها مفرزات تحرسها؛ خوفا من أن يؤخذوا على غرة.

⌧وقامت دوريات من المسلمين ـ لاكتشاف تحركات العدو ـ تتجول حول الطرق التي يحتمل أن يسلكها المشركون للإغارة على المسلمين.

توجه الجيش المكي إلى أسوار المدينة:

⌧وتابع جيش مكة سيره على الطريق الغربية الرئيسية المعتادة، ولما وصل إلى الأبْوَاء اقترحت هند بنت عتبة ـ زوج أبي سفيان ـ بنبش قبر أم رسول الله ﷺ، بَيدَ أن قادة الجيش رفضوا هذا الطلب، وحذروا من العواقب الوخيمة التي تلحقهم لو فتحو هذا الباب.

⌧ثم واصل جيش مكة سيره حتى اقترب من المدينة، فسلك وادي العَقيق، ثم انحرف منه إلى ذات اليمين حتى نزل قريباً بجبل أحد، في مكان يقال له: عَينَيْن، في بطن السَّبْخَة من قناة على شفير الوادي

ـ الذي يقع شمالى المدينة بجنب أحد، فعسكر هناك يوم الجمعة السادس من شهر شوال سنة ثلاث من الهجرة.

المجلس الاستشاري لأخذ خطة الدفاع:

ونقلت استخبارات المدينة أخبار جيش مكة خبراً بعد خبر حتى الخبر الأخير عن معسكره، وحينئذ عقد رسول الله ﷺ مجلساً استشارياً عسكرياً أعلى، تبادل فيه الرأي لاختيار الموقف، وأخبرهم عن رؤيا رآها، قال: (إني قد رأيت والله خيراً، رأيت بقراً يذبح، ورأيت في ذُبَاب سيفي ثُلْماً، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة)، وتأوّل البقر بنفر من أصحابه يقتلون، وتأول الثلمة في سيفه برجل يصاب من أهل بيته، وتأول الدرع بالمدينة.

ثم قدم رأيه إلى صحابته ألا يخرجوا من المدينة وأن يتحصنوا بها، فإن أقام المشركون بمعسكرهم أقاموا بِشَرِّ مُقَام وبغير جدوى، وإن دخلوا المدينة قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة، والنساء من فوق البيوت، وكان هذا هو الرأي.

ووافقه على هذا الرأي عبد الله بن أبي بن سلول ـ رأس المنافقين ـ وكان قد حضر المجلس بصفته أحد زعماء الخزرج، ويبدو أن موافقته لهذا الرأي لم تكن لأجل أن هذا هو الموقف الصحيح من حيث الوجهة العسكرية، بل ليتمكن من التباعد عن القتال دون أن يعلم بذلك أحد، وشاء الله أن يفتضح هو وأصحابه ـ لأول مرة ـ أمام المسلمين وينكشف عنهم الغطاء الذي كان كفرهم ونفاقهم يكمن وراءه، ويتعرف المسلمون في أحرج ساعاتهم على تلك الأفاعي التي كانت تتحرك تحت ملابسهم وأكمامهم.

فقد بادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر ومن غيرهم، فأشاروا على النبي ﷺ بالخروج، وألحوا عليه في ذلك حتى قال قائلهم: يا رسول الله، كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله، فقد ساقه إلينا وقرب المسير، اخرج إلى أعدائنا، لا يرون أنا جَبُنَّا عنهم.

وكان في مقدمة هؤلاء المتحمسين حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ ـ الذي كان قد أبلي أحسن بلاء في معركة بدر ـ فقد قال للنبي ﷺ: والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة.

وتنازل رسول الله ﷺ عن رأيه مراعاة لهؤلاء المتحمسين، واستقر الرأي على الخروج من المدينة، واللقاء في الميدان السافر.

تكتيب الجيش الإسلامي وخروجه إلى ساحة القتال:

ثم صلى النبي ﷺ بالناس يوم الجمعة، فوعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد، وأخبر أن لهم النصر بما صبروا، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم، ففرح الناس بذلك، ثم صلى بالناس العصر، وقد حشدوا وحضر أهل العَوَالى، ثم دخل بيته، ومعه صاحباه أبو بكر وعمر، فعمماه وألبساه، فتدجج بسلاحه وظاهر بين درعين [أي لبس درعا فوق درع] وتقلد السيف، ثم خرج على الناس.

وكان الناس ينتظرون خروجه، وقد قال لهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير: استكرهتم رسول الله ﷺ على الخروج فردوا الأمر إليه، فندموا جميعاً على ما صنعوا، فلما خرج قالوا له: يا رسول الله، ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما شئت، إن أحببت أن تمكث بالمدينة فافعل، فقال رسول الله ﷺ: (ما ينبغي لنبي إذا لبس لأْمَتَه ـ وهي الدرع ـ أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه).

وقسم النبي صلى الله عليه وسلم جيشه إلى ثلاث كتائب:

1. كتيبة المهاجرين، وأعطي لواءها مصعب بن عمير العبدري.

2. كتيبة الأوس من الأنصار، وأعطي لواءها أسيد بن حضير.

3. كتيبة الخزرج من الأنصار، وأعطي لواءها الحُبَاب بن المنذر.

⌧وكان الجيش متألفاً من ألف مقاتل فيهم مائة دارع (لأَبِسُ الدِّرْع)، ولم يكن فيهم من الفرسان أحد، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقي في المدينة، وآذن بالرحيل، فتحرك الجيش نحو الشمال، وخرج السعدان أمام النبي ﷺ يعدوان دارعين.

⌧ولما جاوز ثنية الوداع رأى كتيبة حسنة التسليح منفردة عن سواد الجيش، فسأل عنها، فأخبر أنهم اليهود من حلفاء الخزرج يرغبون المساهمة في القتال ضد المشركين، فسأل: (هل أسلموا؟) فقالوا: لا، فأبى أن يستعين بأهل الكفر على أهل الشرك.

استعراض الجيش:

⌧وعندما وصل إلى مقام يقال له: [الشيخان] استعرض جيشه، فرد من استصغره ولم يره مطيقاً للقتال، وأجاز رافع بن خَدِيج، وسَمُرَة بن جُنْدَب على صغر سنهما، وذلك أن رافع بن خديج كان ماهراً في رماية النبل فأجازه، فقال سمرة: أنا أقوى من رافع، أنا أصرعه، فلما أخبر رسول الله ﷺ بذلك أمرهما أن يتصارعا أمامه فتصارعا، فصرع سمرة رافعاً، فأجازه أيضاً.

المبيت بين أحد والمدينة:

⌧وفي هذا المكان أدركهم المساء، فصلى المغرب، ثم صلى العشاء، وبات هنالك، واختار خمسين رجلاً لحراسة المعسكر يتجولون حوله، وكان قائدهم محمد بن مسلمة الأنصاري، بطل سرية كعب بن الأشرف، وتولي ذَكْوَان بن عبد قيس حراسة النبي ﷺ خاصة.

تمرد عبد الله بن أبي وأصحابه:

⌧وقبل طلوع الفجر بقليل أدلج، حتى إذا كان بالشَّوْط صلى الفجر، وكان بمقربة جداً من العدو، فقد كان يراهم ويرونه، وهناك تمرد عبد الله بن أبي المنافق، فانسحب بنحو ثلث العسكر ـ ثلاثمائة مقاتل ـ قائلاً: ما ندري علام نقتل أنفسنا؟ ومتظاهراً بالاحتجاج بأن الرسول ﷺ ترك رأيه وأطاع غيره.

⌧وكاد المنافق ينجح في تحقيق بعض ما كان يهدف إليه، فقد همت طائفتان ـ بنو حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج ـ أن تفشلا، ولكن الله تولاهما، فثبتتا بعدما سري فيهما الاضطراب، وهمتا بالرجوع والانسحاب، وعنهما يقول الله تعالي: {إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران: 122].

⌧وحاول عبد الله بن حَرَام ـ والد جابر بن عبد الله ـ تذكير هؤلاء المنافقين بواجبهم في هذا الظرف الدقيق، فتبعهم وهو يوبخهم ويحضهم على الرجوع، ويقول: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع، فرجع عنهم عبد الله بن حرام قائلاً: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه، وفي هؤلاء المنافقين يقول الله تعالى: {وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ} [آل عمران: 167].

واصل بقية الجيش الإسلامي السير إلى أحد:

وبعد هذا التمرد والانسحاب قام النبي ﷺ ببقية الجيش ـ وهم سبعمائة مقاتل ـ ليواصل سيره نحو العدو، وكان معسكر المشركين يحول بينه وبين أحد في مناطق كثيرة، فقال: (من رجل يخرج بنا على القوم من كَثَبٍ ـ أي من قريب ـ من طريق لا يمر بنا عليهم؟).

فقال أبو خَيْثَمَةَ: أنا يا رسول الله، ثم اختار طريقاً قصيراً إلى أحد يمر بحَرَّةِ بني حارثة وبمزارعهم، تاركاً جيش المشركين إلى الغرب.

ومر الجيش في هذا الطريق بحائط مِرْبَع بن قَيظِي ـ وكان منافقاً ضرير البصر ـ فلما أحس بالجيش قام يحثو التراب في وجوه المسلمين، ويقول: لا أحل لك أن تدخل حائطي إن كنت رسول الله، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال ﷺ: (لا تقتلوه، فهذا الأعْمَى أعمى القلب أعمى البصر).

ونفذ رسول الله ﷺ حتى نزل الشعب من جبل أحد في عدوة الوادي، فعسكر بجيشه مستقبلاً المدينة، وجاعلا ظهره إلى هضاب جبل أحد، وعلى هذا صار جيش العدو فاصلاً بين المسلمين وبين المدينة.

خطة الدفاع:

وهناك عبأ رسول الله ﷺ جيشه، وهيأهم صفوفاً للقتال، فاختار منهم فصيلة من الرماة الماهرين، قوامها خمسون مقاتلاً، وأعطي قيادتها لعبد الله بن جبير بن النعمان الأنصاري ، وأمرهم بالتمركز على جبل عينين ـ وهو الذي يعرف بجبل الرماة ـ و قال لقائدهم: (انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك، لا نؤتين من قبلك) وقال للرماة: (احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا)، وفي رواية البخاري أنه قال: (إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم ووطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم).

بتعين هذه الفصيلة في الجبل مع هذه الأوامر العسكرية الشديدة سد رسول الله ﷺ الثلمة الوحيدة التي كان يمكن لفرسان المشركين أن يتسللوا من ورائها إلى صفوف المسلمين، ويقوموا بحركات الالتفاف وعملية التطويق.

أما بقية الجيش فجعل على الميمنة المنذر بن عمرو، وجعل على الميسرة الزبير بن العوام، يسانده المقداد بن الأسود، وكان إلى الزبير مهمة الصمود في وجه فرسان خالد بن الوليد، وجعل في مقدمة الصفوف نخبة ممتازة من شجعان المسلمين ورجالاتهم المشهورين بالنجدة والبسالة، والذين يوزنون بالآلاف.

الرسول ﷺ ينفث روح البسالة في الجيش:

ونهى الرسول ﷺ الناس عن الأخذ في القتال حتى يأمرهم، وظاهر بين درعين، وحرض أصحابه على القتال، وحضهم على المصابرة والجلاد عند اللقاء، وأخذ ينفث روح الحماسة والبسالة في أصحابه حتى جرد سيفاً باتراً ونادي أصحابه: (من يأخذ هذا السيف بحقه؟)، فقام إليه رجال ليأخذوه ـ منهم على بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وعمر بن الخطاب ـ حتى قام إليه أبو دُجَانة سِمَاك بن خَرَشَة، فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: (أن تضرب به وجوه العدو حتى ينحني)، قال: أنا آخذه بحقه يا رسول الله، فأعطاه إياه.

وهكذا تمت تعبئة الجيش النبوي صباح يوم السبت السابع من شهر شوال سنة 3هـ.

تعبئـة الجيش المكي:

وعبأ المشركون جيشهم، وتقدموا إلى ساحة القتال، تحرضهم نسوتهم، وهن يتجولون في الصفوف، ويضر بن بالدفوف ويثرن الأبطال، وينشدن الأبيات:

إن تقبلوا نعانق ... ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق ... فراق غير وامق

🗐مناورات سياسية من قبل قريش:

وقبيل نشوب المعركة حاولت قريش إيقاع الفرقة والنزاع داخل صفوف المسلمين، فقد أرسل أبو سفيان إلى الأنصار يقول لهم: خلوا بيننا وبين ابن عمنا فننصرف عنكم، فلا حاجة لنا إلى قتالكم، ولكن أين هذه المحاولة أمام الإيمان الذي لا تقوم له الجبال، فقد رد عليه الأنصار رداً عنيفاً، وأسمعوه ما يكره.

🗐المبارزة والقتال:

⌧وتقارب الجيشان فطلع طلحة بن أبي طلحة العبدري حامل لواء المشركين وأشجع فرسان قريش، ودعا إلى المبارزة وهو على بعير، فتقدم إليه الزبير بن العوام - رضي الله عنه - ووثب وثبة الليث حتى صار معه على جمله، ثم أخذه واقتحم به الأرض، وذبحه بسيفه، فكبر النبي ﷺ وكبر المسلمون.

⌧ثم انفجر القتال في كل نقطة وحاول خالد بن الوليد - وهو على فرسان المشركين -ثلاث مرات ليبلغ إلى ظهور المسلمين، ولكن رشقه الرماة بسهامهم حتى ردوه.

⌧وركز المسلمون هجومهم على حملة لواء المشركين حتى قتلوهم عن آخرهم وكانوا أحد عشر مقاتلاً، فبقى اللواء ساقطاً، وشدد المسلمون هجومهم على بقية النقاط حتى هدوا الصفوف هدا وحسوا المشركين حساً، وأبلى أبو دجانة وحمزة - رضي الله عنهما - في ذلك بلاءً حسناً.

⌧وأثناء هذا التقدم والانتصار قتل حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله - رضي الله عنه - قتله وحشي بن حرب، وكان عبداً حبشياً ماهراً في قذف الحربة، وقد وعده مولاه جبير بن مطعم بالعتق إذا قتل حمزة، لأن حمزة هو الذي قتل عمه طعيمة بن عدي في بدر، فاختبأ وحشي وراء صخرة يرصد حمزة، وبينما حمزة يضرب رأس سباع بن عرفطة - رجل من المشركين - صوب وحشي إليه الحربة، وقذفها، وهو على غرة، فوقعت في أحشائه، وخرجت من بين رجليه فسقط ولم يستطع النهوض حتى قضى نحبه - رضي الله عنه -.

⌧ووقعت الهزيمة بالمشركين حتى لاذوا بالفرار، وفرت النسوة المحرضات، وتبعهم المسلمون يضعون فيهم السلاح، ويأخذون الغنائم، وحينئذ أخطأ الرماة، فنزل منهم أربعون رجلاً ليصيبوا من الغنيمة، على رغم ما كان لهم من الأمر المؤكد بالبقاء في أماكنهم، وانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة، فانقض على العشرة الباقية بجبل الرماة حتى قتلهم، واستدار هذا الجبل حتى وصل إلى ظهور المسلمين وبدأ بتطويقهم، وصاح فرسانه صيحة عرفها المشركون فانقلبوا، ورفعت لواءها إحدى نسائهم فالتفوا حوله وثبتوا، وبذلك وقع المسلمون بين شقي الرحى.

☝فبسبب معصية واحدة خالف فيها الرماة أمر النبي ﷺ، وبسب التنازع والاختلاف حول الغنائم ، ذهب النصر عن المسلمين بعد أن انعقدت أسبابه ، ولاحت بوادره ، فقال سبحانه :{وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ}(آل عمران 152)، فكيف ترجو أمة عصت ربها ، وخالفت أمر نبيها ، وتفرقت كلمتها أن يتنزل عليها نصر الله وتمكينه ؟.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: " ما كنت أرى أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزل فينا يوم أحد (مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ)، وفي ذلك درس عظيم يبين أن حب الدنيا والتعلق بها قد يتسلل إلى قلوب أهل الإيمان والصلاح، وربما خفي عليهم ذلك، فآثروها على ما عند الله، مما يوجب على المرء أن يتفقد نفسه وأن يفتش في خباياها، وأن يزيل كل ما من شأنه أن يحول بينها وبين الاستجابة لأوامر الله ونواهيه.

هجوم المشركين على رسول الله ﷺ وإشاعة مقتله:

وكان رسول الله ﷺ في مؤخرة المسلمين، ومعه سبعة من الأنصار واثنان من المهاجرين، فلما رأى فرسان خالد تطلع من وراء الجبل نادى أصحابه بأعلى صوت: إلى عباد الله! وسمع صوته المشركون - ولعلهم كانوا أقرب إليه من المسلمين - فأسرعت مجموعة منهم نحو الصوت، وهاجمت رسول الله ﷺ هجوماً شديداً، وحاولت القضاء عليه قبل أن يصل إلية المسلمون، فقال ﷺ من يردهم عنا وله الجنة؟ أو هو رفيقي في الجنة فتقدم رجل من الأنصار فدفعهم، وقاتلهم حتى قتل، ثم رهقوه فأعاد قوله، فتقدم رجل آخر فدفعهم وقاتلهم حتى قتل، ثم الثالث، ثم الرابع وهكذا حتى قتل السبعة.

ولما سقط السابع لم يبق حول رسول الله ﷺ إلا القرشيان طلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص، فركز المشركون حملتهم على رسول الله ﷺ حتى أصابته حجارة وقع لأجلها على شقه، وأصيب رباعيته اليمنى السفلى وجرحت شفته السفلى وهشمت البيضة على رأسه، فشجت جبهته ورأسه، وضرب بالسيف على وجنته فدخلت فيها حلقتان من حلق المغفر، وضرب أيضاً بالسيف على عاتقه ضربة عنيفة اشتكى لأجلها أكثر من شهر، وكان قد لبس درعين فلم يتهتكا.

وقع كل هذا على رغم دفاع القرشيين الدفاع المستميت، فقد رمى سعد بن أبي وقاص حتى نثل له رسول الله ﷺ كنانته وقال: ارم فداك أبي وأمي، وقاتل طلحة بن عبيد الله وحده قتال مجموع من سبق، حتى أصابه خمسة وثلاثون أو تسعة وثلاثون جرحاً، ووقى النبي ﷺ فأصيبت أصابعه حتى شلت، ولما أصيب أصابعه قال: حس، فقال النبي ﷺ لو قلت: بسم الله، لرفعتك الملائكة والناس ينظرون. وروي الترمذي وابن ماجه أن النبي ﷺ قال فيه يومئذ: (من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله).

وخلال هذه الساعة الحرجة نزل جبريل وميكائيل فقاتلا عنه أشد القتال، وفاء إليه ﷺ عدد من المسلمين فدافعوا عنه أشد الدفاع، وكان أولهم أبا بكر الصديق، ومعه أبو عبيدة بن الجراح - رضي الله عنهما - وتقدم أبو بكر لينزع حلقة المغفر عن وجه رسول الله ﷺ فألح عليه أبو عبيدة حتى نزعها هو، فسقطت إحدى ثنيتيه، ثم نزع الحلقة الأخرى فسقطت الثنية الأخرى، ثم أقبلا على طلحة بن عبيد الله فعالجاه وهو جريح.

وأثناء ذلك وصل إلى رسول الله ﷺ أبو دجانة ومصعب بن عمير وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وغيرهم، وتضاعف عدد المشركين أيضاً، واشتدت هجماتهم، وقام المسلمون ببطولات نادرة، فمنهم من يرمي، ومنهم من يدافع، ومنهم من يقاتل، ومنهم من يقي السهام على جسده.

المراجع:

❶روضة الأنوار في سيرة النبي المختار المباركفوري.

❷الرحيق المختوم المباركفوري.

❸ عبر وفوائد من غزوة أحد إسلام ويب.